# من أجل
# معهد للسوسيولوجيا

(*)جمال خليل

هناك أراضي قاحلة يلزمنا، من أجل البقاء فيها على قيد الحياة، أن نحارب. وثمة أراضي أخرى، أراضي بور، يكون حصادها باهر العطاء، وماشيتها سمينة، عندما تجود السماء بغيثها. أما في سنوات الجفاف العجاف، فتشترك الأرض والناس في سيماء من الحزن والبؤس، كأوضح بيان للحال...
ولكن ثمة دائماً أراضي طاعمة وخصبة على أهبة العطاء، تُحاذي أنهاراً ووديانا تزخر بثروات من الأسماك...
على هذه الأرض التي تُسمى المغرب، عاش رجال ونساء منذ آلاف السنين...كانوا خلالها أحراراً حيناً وخاضعين أحياناً، منتفضين حيناً ومضطهَدين أحياناً...ولكنهم ما استكانوا واستسلموا، وهم يخوضون جيلاً بعد جيل وحقبة بعد حقبة، شتى أنواع المعارك وأنواع المقاومة، من أجل بقائهم وصمودهم، ومن أجل حماية أمهم، هذه الأرض، موطنهم الحاضن.
في تلك المعارك، كسبوا جولات، وخسروا أخرى...ولكن هذه الأرض شكّلتهم، تماماً كما أن معاركهم المستمرة نحَتت، كما على الصخر، معالم بيئتهم المحيطة.
منذ أكثر من قرن، شرعوا في التجمع أكثر فأكثر في المدن المستقطبة باختلافاتهم وتنوع ثقافاتهم، فشقّت أعمالُهم وحوافزهم سبلاً جديدة لم يطرقوها من قبل...ازداد نمط تنظيمهم تعقيداً بقدر ماكان العالم من حولهم يتغيّر، وبقدر ما كانوا هم أنفسهم أيضاً يتغيّرون معه. لم يعد انتظار المطر والبحث عن الماء من المتغيرات الأساسية

التفسيرية لعالم مقفر وشحيح. فالعالَم الاجتماعيّ لايمكنه الركون للتفسيرات التاريخوية، ولا للنماذج النفعوية.

أجل، لقد أنجزت علوم الطبيعة ثوراتها، ويبدو أن العلوم الاجتماعية تمضي مقتفية أثرها على طريق إنجاز ثورتها الخاصة، وإن يكن ربما، في عالم آخر غير عالمنا نحن. ولقد عرف عالَم الفيزياء حدوث قطائع غير متوقعة أحالت نظرياتٍ تفسيريةً سابقة حول الأرض والحياة نِسياً منْسياً. فبعد اكتشاف الإلكترون من قبل ج.ج. تومسون (J. J Thomson) في 1890، سيضيق مجال الميكانيكا الذي اكتشفه نيوتن عن استيعاب كل الفتوحات الجديدة في العلم... ثم كان اكتشاف الماء الثقيل على يد هارولد أوري (Harold Urey)في 1932 ، والذي أسقط الماء الطبيعيّ من على عرشه كوحدة للقياس طالما تشبث بها الكيميائيون، رغم كل ما قيل وماكتب عن الماء منذ سالف الأزمان. والحال اليوم، أن شبكات الترابط والاتصال البينيّ بين الناس مباشرة في الزمان الحقيقيّ، قد أفقد عدداً من التخصصات دورها في تفسير ما نحن عليه وماهو عليه عالمنا اليوم. وداخل عالم اليوم هذا، يتحول العالَم الاجتماعيّ ويتقلص ليصبح (panoptique)أشبه بسجن توحّده كل أنواع العدوى التي تجتاحه طولاً وعرضاً، عندما يميلُ فيه كل عنصر متحوّل إلى أن يحوّل معه، ليس فقط العنصر الأقرب منه، بل أيضاً العنصر الأبعد.

أين يمكننا العثور على تفسيرات لهذا العالم الذي يحيط بنا ويلُفّنا، والذي لايتوقف عن التعقد أكثر فأكثر، وهو ينتقل من لوحة أو مشهدية في متناول الفهم، إلى نماذج جديدة تتقدّم لنا كألغاز مغلقة يتطلب اختراقها مجهودات كبرى لمَوْضَعتها كي تصبح قابلة لأن تدرك. وبقدر ما حققت العلوم التجريبية وعلوم الطبيعة قفزات متتالية في فهم العالم الفيزيائيّ والحيّ الذي يحيط بنا، بفضل تغيير منهجها وتعظيم طاقتها على التجديد والإبداع التي تصل أحياناً حدّ معارضة ومراجعة مايبدو كحدوس وبداهات أولية في المعرفة، بقدر ما بدأت العلوم الاجتماعية بالكاد في تلمُّس واقتراح قراءات أولى وأولية لهذا العالم الجديد المحيط بنا. حقّاً، كما يقول بيير بورديوه، أن العلوم الاجتماعية، وعلم الاجتماع على وجه التحديد يُزعج كثيراً، وهو الذي يأبى إلاّ أن يقول الأشياء التي يُفَضَّل ألا تُقال، أو أن يُسكَت عنها أو تُزاح أو تُحوّل. تسعى السوسيولوجيا، وهي تنجح في ذلك، لإبراز أن بعض القرارات التي قد تُتخذ أحياناً بكل ما يمكن تصوره من حسن نية ممكن، تتولد عنها غالباً نتائج معكوسة ووخيمة ولا تُنبت سوى أزهار شرّ قاتلة. فأين يمكننا، بحق السماء، أن نتكلم عن كل هذا، إن

لم يكن في فضاء مفتوح تكون فيه للكلمة حريةُ وحقّ الوجود والانتشار والتفاعل حتى تتمايز الأفكارُ المُبلورةُ والمُتَحقَّقُ منها علمياً، وتنْفرز، وتجدَ لها بعد ذلك طريقاً لتستقر في أذهان الناس وفي حياتهم، والكلّ، على أساس هذه القاعدة الذهبية، وهي أن ما يفسّر العالم ويسمح له بالتطور هي الأفكارُ، لا المصالح!

ليس مفترضاً ولا معقولاً أن تتعرض حركة الأفكار لأي تعويق أو تقييد؛ فانطلاقاً من الأفكار وبفضلها اكتشفنا قوة الجاذبية، والراديوم والفيروسات والجينات...وبفضل صفوة من الأفكار كالمساواة، والحقوق الإنسانية، وحرية التفكير، والتعبير، وحرية الضمير، وروح القوانين...بدأنا نعيش أفضل في هذا العالم ونفهمه أفضل. فالأفكار تروج وتتعقلن عندما يتم تبنّيها واحتضانها في مجتمعات مفتوحة.

وفي المغرب، لا خيار آخر أمامنا سوى أن نهيء لهذه الأفكار فضاء للحركة والرواج حيث تُناقش وتُخْتبر قبل أن توضع على طريق التفعيل والتصريف. ويمكن لهذا الفضاء أن يتوافق ويتطابق مع معهد للسوسيولوجيا، أو مع مؤسسة للعلوم الاجتماعية، علماً بأن الاختيار الأول، سيعطي من الناحية الرمزية مؤشراً قوياً على جبْر ضررٍ، عبر تصحيحٍ ولو متأخّرٍ لظُلم بَيّـنٍ.

بعد استقلال المغرب، أحْدِثَ معهد السوسيولوجيا في 1960، ليغلق في 1970. كان ذلك عهداً آخر، وكانت تلك ممارسة أخرى، يمكن أن تغلق فيها مدرسة بجرم عدم امتثالية أفكارها...كان ذلك مجتمعاً مغلقاً.

كان يمكن لهذه السابقة أن تصيب السوسيولوجيا في الصميم بنوع من الهشاشة والعَرَضيّة، ويهدد بأن تُمنع منعاً فعلياً في أي وقت، أو تبقى إلى حين في حالة "منع مع وقف التنفيذ". وكلّ ذلك، كي تتعلم هذه السوسيولوجيا المستعصية على الاحتواء والتدجين، كيف تكون دائماً منتبهة وحذرة، وتراقب ذاتياً كل ماتقوله وما تفعله، تحت طائلة السيف المسلط، سيف معاودة المنع.

جرت بعد ذلك محاولات لخلق بنيات للعلوم الاجتماعية، كان أخصبها المركز المغربي للعلوم الاجتماعية سنة 2000، وذلك بدعم مميز من رئيس جامعة الحسن الثاني. ولكن مسار هذه البنية كان عنواناً لمفارقة كبرى: فبينما كان تطوره العلميّ وعلاقاته الدولية، وتكوينه العالي الجودة في سلك الدكتوراة (مع مايتجاوز المائة باحث في هذا السلك)، يتجه في منحى تصاعديّ على مدى أكثر من اثنتي عشرة سنة متوالية، كانت مأسستُه تتردّى على نحو غريب في المنحى المعاكس تماماً. ثم أتى توحيد جامعتي الحسن الثاني ليدق ناقوس إعلان على وقوع ما كان لابد من

وقوعه، عندما اختفى عملياً. وتوخياً للدقة، هو حُكم عليه بذات المصير الذي عرفه القِطّ الشهير للعالم الفيزيائي شرودينغر (Schrödinger)، بحيث لا يُعرف هل هو حيّ أو ميّت! هكذا سيهوي المركز إلى القاع السحيق لوضعية نملك كل أسرار وعبقرية صناعتها؛ فعندما لا تكون حقيقة شيءٍ ما أكيدة، نحب أن يكون موجوداً، ولأن واقع الحال غير ذلك، فنحن نحب ذلك الشيء أكثر أيضاً، لأنه غير حقيقيّ!

كان من تداعيات تجميد السوسيولوجيا بالمغرب كبح وتجفيف بيئة ملائمة وحاضنة للتفكير والإنتاج في العلوم الاجتماعية. تخصّص علميّ، كان في حاجة حيوية، كيْما يبقى ويتطور، لمجابهات ولتَباري أفكار بين زملاء في البحث، ولتبادلات وانتقادات ومناقشات، لا يضرّ حتى إن كانت أحياناً متضاربة.

وعندما تم ببساطة تفكيك هذا "العالَم الصغير"، ماتت أو اغتيلت معه إمكاناتٌ وفرصٌ وطموحاتٌ.

أما المخلفات من الأضرار فيمكن أن تلاحَظ على المدى البعيد وعند أجيال عدة. فيما الراهنُ المباشر الذي بِتْنا نعاينه ونعانيه، فهو أن السوسيولوجيا كتخصّص، كعلم وكشعبة دراسية جامعية قد انقرضت من المكتبات، ومن الوسائط الإعلامية، ومن أروقة معارض الكتاب، ومن المناظرات...وأسوأ من ذلك وأكثر مدعاة للحزن حقاً، أن لايعود لها وجود تماماً حتى في مخيالات طلاب المستقبل.

لقد بُتِرت السوسيولوجيا كخيار ضمن خريطة الخيارات الأكاديمية الممكنة لمتابعة الدراسة الجامعية، بتراً شديد العنف والإيلام، وتَلا ذلك، ودعّمه أن بلاتوهات القنوات التلفزيونية، واستديوهات المحطات الإذاعية، ومحرري الصحف، لم يعد بإمكانها لا استضافة عالم اجتماع ولا حتى الحديث عن تحاليله.

وبعد جيلين أو ثلاثة، ها نحن نجد أنفسنا نعاني من كل هذه الحُلكة ومن كل هذا العماء اللذين خلّفهما غروبُ السوسيولوجيا.

لم تكن السوسيولوجيا لتزعج فقط بسبب علاقات قرابتها مع بعض إيديولوجيات تلك الحقبة، بل أيضاً، وأساساً، لأنها كانت أداة لمعرفة وقراءة واقع جماعات أولية وثانوية، من التنظيمات والحركات الاجتماعية. وهي أيضاً مكان لملاحظة منطقة أو حتى أمة، وتقدم من أجل ذلك إمكانات لقراءة ووصف الاجتماعيّ، والسياسيّ، والدينيّ والاقتصاديّ. وهي تسمح لنا بشكل أخص بتحليل كيف تفعل كل هذه الحقول وكيف تتفاعل في ما بينها. يعني أنها بمعنى ما، تعرّي ماكان يجب أن يبقى

محجوباً باسم تصور ما لماهية النظام الملائم ولماهية الاعتبارات الماكرو-تدبيرية التي يجب أن تحكم البلاد.

ولكن، هل يكفي كل ذلك كحجة لحرمان بلد من نوع من المرآة (كان السابقون يسمّونها "بسيكي"(Psyché))، أو حتى نوع من المجهر. وحتى نبقى في إطار هذه المماثلة بالذات، كان منع السوسيولوجيا بمثابة منع لهذه الأداة التي تستطيع رؤية ما لايمكن للعين المجردة رؤيته. هل كان لعلمي البيولوجيا والطب أن يحققا ما حققا من إنجازات وطفرات لو كانا محرومين من المجاهر ومن خبرة أولئك الذين تعلموا استعمالها من أجل تحليل وتأويل سلوك كائنات لا متناهية الصغر (فيروسات، بكتيريات، حمض نووي(ADN) و(ARN) ساعية كانت أو ناقلة السواء)، كم من الجوائح والأوبئة، وكم من الأمراض تمكنا من مواجهتها والشفاء منها بفضل هذه الأدوات؟ ومرة أخرى، أن نمنع الأداة، يعني أننا نتجاهل، أو نرغم الباحثين على أن يتجاهلوا شتى الأوجاع التي تظهر أعراضها الأولى هنا وهناك كالفطر، والتي يمكن أن تتفاقم في كل لحظة. هل نملك أدوات ملاحظة أخرى يمكن طرحها كبدائل لهذه الأداة الأكثر تاهيلاً وتلاؤماً التي تمّ تحريمها؟

إن تاريخ العلوم والمعرفة مليء وغنيّ بالأمثلة التي لا يستنفذها العدّ والإحصاء، عن مثل هذه الأشكال من التعويق والهدر الذاتيين بقرار؛ فطوال الحقبة التي ضرب فيها الطاعون في العصور الوسطى، كانت الكنيسة تمنع استعمال الخل على سبيل الوقاية، هذا مع أن العلماء العرب كانوا قد أثبتوا من قبل فعاليته في إيقاف المرض. وبسبب ذلك، وجب أن تتم التضحية بحياة ملايين البشر حتى لا يتم استعمال دواء أوجده جاحدون وكفار (في أعين السلطة الكنسية) !. والأدهى والأمرّ، في الموضوع هو هذه المفارقة: فقد كان كهّان تلك الحقبة يستعملون الخل على أوسع نطاق لوقايتهم الخاصة ضد الطاعون، فيما هم يرفعون الصّلْبان باسم الموتى!!!

وإذن، فأن نمنع أداة مثل السوسيولوجيا، هو نكوصٌ يعود بنا القهقرى إلى ممارسة قروسطية كانت تعْدم أداة معرفة لم تكن متوافقة مع منظور شكلٍ ما من أشكال حكامة المجتمع.

يؤاخذون على السوسيولوجيا في المغرب أن هواها كان ماركسياً في وقت كانت البلاد ماتزال تعاني من هشاشة وضع مابعد الاستقلال. كان عليها في ذلك الزمان أن تسير وتساير راضية خانعة ركب رؤى الحكم السياسية والاجتماعية. وطبعاً، لم يكن في كل ذلك ذرة واحدة تناسب لاموضوع السوسيولوجيا ولا روحها، اللهم إن كانت

"سوسيولوجيا غرفة" تقوم مقام "علم" تبريريّ للقرارات والبرامج التي تريدها وترضى عنها الدولة. وطبعاً، حتى هذه المؤاخذة الإيديولوجية على السوسيولوجيا في المغرب، لاتنهض كحجة صلبة لتبرير بعْديّ لمنعها.

أما تدريس السوسيولوجيا الذي استمر على قيد الحياة في الرباط وفاس فلم يكن له كبير طموح، إذ بقي محصوراً ومحدوداً، وشهد الإنتاج فيهما تراجعاً وتقلصاً واضحين؛

وكان أعز ما تطلبه الشعبتان هو مجرد البقاء في ظل ظرف قاس...وقد كان لهما ذلك على طريقة خادم أو تابع (Mitläufer). لم يعد الإنتاج لا نقدياً ولا تأملياً تأصيلياً. أما العصيان والتجديد فلم يكونا قط على جدول أعمال البحث. وإجمالاً يمكننا القول إنه تم الاحتفاظ بتدريس وتعليم السوسيولوجيا في جامعتي الرباط وفاس، في "أنبوب مختبر"، وكان شكل ومحتوى هذه السوسيولوجيا يعطي نوعاً من الشرعية على وجودها في المغرب، مع الاحتفاظ في آن باحتكار كل التعليم والبحث السوسيولوجيين، بعد أن كانت الخطوط الحمر قد رسمت وأليات الرقابة تشتغل في العالية عبر ضبط موضوعات الأطروحات والبحوث ومضامين الدروس والمحاضرات التي تقدم للطلبة.

واليوم، بعد انصرام أكثر من ثلاثة عقود على المنع والتجميد، يبدو أن عودة السوسيولوجيا على الساحة الأكاديمية تبقى صعبة، وستكون عودة مشوهة وفاقدة لأية هوية ولأي انغراس صلب في المناهج والاختبارات والنظريات. والحال، أنه بمنع المعهد، كانت السلسة قد انقطعت وانفرطت حلقاتها. ثمة محاولات تجري كيفما اتفق لإعادة الحياة لنصوص مونطاني وباسكون أو الخطيبي...ولكن روحَ زمنٍ سوسيولوجيّ حُكم عليه بالبتر والتعطيل ما يزال يرخي بكل ثقله على الوضع. أما الجيل الذي بقي في الرباط وفاس فلم يستطع تكوين سوسيولوجيين قادرين على ملاحظة وفهم الحاضر المعقد، غير المؤكد، والذي أصبح، فوق ذلك ذا بُعد كوكبيّ. كيف يمكننا تفسير حركة جماهيرية عبر ما يجري خلف الشاشات، عندما لا يكون بإمكاننا حتى أن نلاحظ ونفسر اعتصاماً عمالياً صغيراً أمام بوابة معمل؟ حتى الأدوات والمناهج والنظريات الموروثة عن هذه الحقبة لاتسمح لتخصص مُجامل ومُداهن بالحديث عن مجتمع في حالة تحول دائم؟

هل بالإمكان تدارك هذا التأخر؟ وإلى أي حدّ يمكننا شق طرق مختصرة للسوسيولوجيا في المغرب كي تستعيد سريعاً عنفوانها وعافيتها؟ طبعاً، ثمة جهود

تبذل، غير أن المثال هو أن تقوم الدولة بوضع معالجة في العمق لتخصص هي نفسها من بادر إلى إلو وضعه في حالة عجفاء وموحلة. وسيكون ذلك عملاً إيجابياً في حق مجال معرفيّ مفيد لمقرّري اليوم، الذين عليهم تلافي إغراءات إعادة إنتاج أخطاء سابقيهم. ووحدهم المشرفون على الأطروحات الذين لا يقيدون مجال اختيار الموضوعات ولا يرسمون خطوطاً حمراً للباحثين لا يتخطونها، سيكونون قادرين على خلق جيل من السوسيولوجيين يفكر خارج الحدود المرسومة قبلياً من جامعة، هي مؤسسة أكاديمية، وإدارة من إدارات الدولة، في آن واحد.

نعم، يبدو أن محاولات إصلاح الجامعة المغربية كانت مفيدة لجهة الانتشار الجغرافيّ الأوسع للسوسيولوجيا في عدة جامعات مغربية أخرى غير الرباط وفاس. فإصلاح الإجازة والماستر والدكتوراة (LMD) سمح بتسهيل استرداد كميّ ونوعيّ للتعليم والبحث السوسيولوجيين، غير أن جاذبية السوسيولوجيا كشعبة جامعية لم ترافقها إجراءات موازية مواكبة، خصوصاً منها توفير هيئة تدريس كافية من أجل جودة أكبر للتعلّمات وللبحث في شعب السوسيولوجيا.

كيف حصل أن حُشرت السوسيولوجيا، والسوسيولوجيون على قلّتهم (طوال عقود، قلة قليلة فقط من السوسيولوجيين تم تكوينهم في المغرب) في زاوية قبل أن توضع في وضع إيقاف تشغيل(Stand-by)، وكل ذلك، فقط لأن وسواساً ما وسوسَ في صدور بعض أصحاب القرار؟ وإذا كانت السوسيولوجيا مزعجة فعلاً إلى هذا الحد، فلماذا أحدثت شعب جديدة منها بعد سنوات 2000، لم يتوافر لها حتى المؤطرونّ؟ فلأي شيء أُريدَ لها أن تصلح؟

وهنا بالذات، فأن نطالب بأن تصلح السوسيولوجيا لشيء، هو أيضاً مطالبة بأن تخدم نظاماً ما، مع أن فائدة أو عدم فائدة حقل أكاديميّ ما ترتبط أساساً بقيمته الأكاديمية وبمشروعيته داخل المجتمع.

لو حاولنا القيام بنوع من التركيب للتعريفات المتعددة التي أعطاها السوسيولوجيون على سبيل تحديد مجال عملهم على امتداد القرنين التاسع عشر والعشرين، لأمكننا القول إن السوسيولوجيا هي الدراسة العلمية لاشتغال المجتمع، بنياتٍ وديناميكيات، وللسلوك البشريّ داخل جماعات اجتماعية. وأنها تدرس التفاعلات والعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع ومؤسساته، عائلية كانت، أو تربوية، أو دينية، أو صحية، أو سياسية، اقتصادية أو مقاولاتية...إلخ. وتسعى السوسيولوجيا أيضاً لفهم كيف أن الأفراد والجماعات يخلقون العلاقات والبنيات الاجتماعية، ويعيدون إنتاجها،

ويغيرونها عبر الزمان. إنها تسائل السلوكات والمواقف والحوافز والتمثلات وإدراكات الأفراد والجماعات وأشكال المنطق والعقلانية الملازمة لكل ذلك. تدرس السوسيولوجيا التجارب الإنسانية كوقائع اجتماعية. حتى أبسط تلك التجارب التي قد تبدو شخصية وفردية، تكون أحياناً ردود أفعال غير إرادية ولا مقصودة على وضعيات أمر واقع ما. وهي أيضاً تسمح بكشف المتخفّي، وبإبراز الاستراتيجيات البديلة.

يوجد السوسيولوجيون في حالة بحث وتعقب للتأثيرات الخفية التي لا يَني الأفرادُ، والتنظيمات، والأنساق والمؤسسات يتعرضون لها، ويحاولون جعل تلك التأثيرات مرئيةً وقابلة للفهم أكثر عبر التحليل السوسيولوجيّ.

وإنه لَأمامَ هذه المسألة التي يمكن أن تطرح صراحة أو ضمناً، يفرضُ تساؤلٌ ما نفسه، وذلك بغاية فحص مدى شرعية طرحه هو نفسه. فبينما لا أحد يطالب علوم الطبيعة: فيزياء وكيمياء وجيولوجيا...بما يبرّر وجودها، فإن علوم الإنسان والعلوم الاجتماعية عموماً، وضمنها السوسيولوجيا، تجد نفسها غالباً في وضعية دفاع كلما تمّت مساءلتها عن دورها ووظيفتها. هذا الموقف أو الفهم الوظيفويّ، أو أقلّه النفعويّ يطالب السوسيولوجيا بإجابات من نوع العلاقة فعل/ نتيجة، جاهلاً أو متجاهلاً أن المجتمع يعيش وفقاً للزمان الطويل. أما حصر وظيفية تخصص فقط في النتائج المباشرة، بل القابلة للملاحظة فوراً، فهو ببساطة اختزال للمجتمع وللحياة الاجتماعية إلى مختبر كبير، تشبهُ النتائجُ فيه تجاربَ الكيمياء والفيزياء أو تطبيقَ معادلات رياضية لحل المشاكل التكنولوجية! وهو أيضاً إنكار أو إغفال لتعقّد الموضوع الإنسانيّ

كان هذا السؤال قد طرح في السوسيولوجيا منذ البداية، ومن ثم الدور المزدوج الذي أسنِد للسوسيولوجيّ، وهو أن يكون في آن واحد باحثاً يُنتج في إطار احترام المنهجية العلمية، ونوعاً من مجوسيّ عابدِ نار، دورُه أن يصف كل ما يقع في المجتمع ويحاول استباق معرفة التغيرات والاتجاهات التي قد يذهب المجتمع صوبها. وقليلة هي التخصصات التي تقوم على مثل هذا الإلزام المزدوج، بأن تعرف الحاضرَ من جهة، وتقدم من جهة أخرى صوراً محتملة للمستقبل الآتي. هذا مع العلم أن السوسيولوجيين، كما يبدو، يحجمون عن لعب هذا الدور المفخخ الذي يتكشّف غالباً كحلم طوباويّ.

ماذا يمكننا اليوم عمله؟ إن كان هذا السؤال مطروحاً على سوسيولوجيين، فالإجابة ستكون لا-إجابة مادام هؤلاء خارج موقع القرار. ومع ذلك، يمكننا طرح بعض

الفرضيات التي يمكن أن تبقى في حالة من السكون والكمون طالما استمررنا في السير كما فعلنا إلى اليوم، وقد تجد أيضاً دينامية ما في حال تغيّر الموقف.
يتحرك السوسيولوجيون في المغرب داخل منطق شبكات محلية، مباشرة ومرئية. يوجد نوع من علاقة بالذات محلية لا كيان لها ولا هوية موحّدة وجامعة. كل واحد ينتج، يتبادل، يناقش، ويكتب في دائرة محدودة ومغلقة. ليس تحديدٌ موضوعاتيٌّ ما هو المطروح والمقصود هنا، بل المقصود هو هذا الانحباس الجغرافيّ، بل والمناطقي الذي يستمر قائماً. مجتمع السوسيولوجيين مجزأ ومتشظي، وقد عززت الشبكات الإلكترونية هذه الانعزالية أكثر، كما عززت شكل الحضور المتشظي هذا. وأرجح الفروض، أن هذه الحالة هي الشكل الأمثل لوجود ولعمل سوسيولوجيا ماتزال فاقدة للبوصلة ومفتقرة لأرضة تنهض عليها هويةٌ مهنية صلبة وجامعة. ومن الراجح أيضاً ألا يكون هذا الواقع سوى مرحلة في التطور نحو حضور أكثر رسوخاً وأحسن هيكلة على الصعيد الوطنيّ. غير أن هذا الانتقال ذاته لن يكون له حظّ في النجاح ما لم يكن محتضَناً ومسنوداً باستعدادات وطاقات فاعلين آخرين غير السوسيولوجيين أنفسهم.
سيتوقف تطور السوسيولوجيا في المغرب أيضاً على تدريسها وتوصيلها، وسيكون لنهوضها مجدداً حظ أن يجري في إطار انتشار متنام لشعب السوسوسيولوجيا عبر عدة مدن جامعية في المغرب، سيما وأن هذه الشعب تفرض نفسها شيئاً فشيئاً كبنيات أحدث وديناميكية، وعلاوة على ذلك، تواجه إقبالاً غير متوقع باعتبارها الشعبة التي تمنح فرصاً للجميع. آلاف من الطلبة يتسجلون فيها حسب مروحة واسعة في دواعي اختيارهم، تتراوح بين اختيارات انتقائية، مفكّر فيها، وبعضها يعكس فوق ذلك شغفاً حقيقياً بالسوسيولوجيا، وبين اختيارات أخرى، هي "اختيارات" يتم اللجوء إليها في نهاية المطاف كبديل اضطراريّ لاختيارات أولى أصلية مرغوبة لم تتحقق.
لم يكن هذا الانفتاح والانتشار بدون ثمن: فالموارد البشرية والمادية المحدودة لشعب السوسيولوجيا هذه، وخصوصاً الأحدث منها، تُلقي بأعباء شديدة على كاهل الأساتذة وعلى طاقتهم في التأطير وضمان أفضل نقل ممكن للمعارف والمهارات السوسيولوجية.
في هذا المغرب، مغربنا، طالما تم اعتبار السوسيولوجيا كشيء غير نافع طوال عقود عديدة. فهل تنفع اليوم في شيء، ومن تنفع؟

مرة أخرى، من يُطالب علماً بأن يكون نافعاً، يعني في النهاية، أنه يطالبه بأن يكون مطابقاً لتمثلاته هو ولتوقعاته هو من هذا العلم. ونضيف إلى ذلك، أن وضع السوسيولوجيا، كشيء غير نافع سياسياً طوال سنين جعلها تكاد لا تُرضي بشكل إيجابي أي طلب من الطلبات، وهي التي وضعتها الظروف في وضع أرض محايدة لايمكن أن يعمرها سوى قلة من العصاة ومثيري القلاقل المحتملين.

لقد عاش هؤلاء السوسيولوجيون واشتغلوا على نحو مشتت وفرديّ، وكل واحد منهم مضغوط ومحشور في استراتيجية بقاء، بدون أي أفق آخر، وبدون تجريب أي عمل آخر، جماعيّ ومنظّم.

هذا الجيل، يوجد اليوم على طريق الانقراض وقد أهلكه فقر التقاعد أو أمراض سرطان كامنة. ويجري الآن تعويضه تدريجياً بجيل جديد لم يعرف لا حالات تيه في الصحراء ولا محاكمات (سياسية ودينية باسم الله)، جيل يتنفس عميقاً بملء رئتيه لوثة سوسيولوجيا حضرية، ويتذوق شتى الأكلات السريعة المحولة جينياً للسوسيولوجيا القروية، جيل جديد يتقدّم عاليَ الرأس والهمّة، بكل طاقة وأمل، وقلبه يخفق مدندناً: " سأبقى على قيد الحياة "(I will survive)!

من الجائز أن يكون ارتكاس البقاء على قيد الحياة هذا ميراثاً مندرجاً في مرحلة التكون والتطور الأولى التي يجتازها كل أولئك الذين يهوون ركوب مغامرة تفسير الاجتماعيّ. إنما، هذه المرة، هل سيظل البقاء على قيد الحياة برنامجاً فردياً، أم سيرقي إلى برنامج بين أفراد؟

قد يحاول بضعة مئات السوسيولوجيين الموجودين اليوم أن يتجمعوا ويتنظموا. وقد يسطع نجم مدرسة سوسيولوجيا أو أكثر في العقدين المقبلين. ولكن سيلزم حلّ مسألة الزعامة، والسوسيولوجيون أنفسهم يوجدون في أفضل وضع لفهم وتقدير أهمية الخطوة.

ثمة سؤال آخر وأخير يطرح: هل يتم اليوم تكوين سوسيولوجيين قادرين على أن يفرزوا من بينهم واحداً أو مجموعة من الباحثين المتمكنين من روح عصرهم (Zeitgeist)، وأن يهزّوا ويقلبوا حقل التمثلات رأساً على عقب، ويفتحوا آفاقاً جديدة لتفاعلات كونية؟ يجب في لحظة ما، أن يرسو ويترسخ ماهو عالميّ شامل على ماهو محليّ، وهذا لن يتم لوحده تلقائيا. وفقط في هذه اللحظة بالذات، سيصبح الخضوع المطلوب من السوسيولوجيا في المغرب أمراً بالياً ومهجوراً.

وما لم يَرفع تاريخُ السوسيولوجيا والسوسيولوجيين الراهن المِرساةَ من أجل إبحار جديد، وفي مياه جديدة، سنستمر في تكرار القول بمناسبة كل أزمة تلمّ بنا: أين هم سوسيولوجيونا؟

ترجمة: عبد الرحمن زكَري

■

مجلة الربيع
فصلية فكرية ثقافية
10
2020
العدد العاشر • السنة السادسة • الثمن 40 درهما

# أي موقع للثقافة في النموذج التنموي؟

CERM
مركز محمد بنسعيد آيت إيدر للأبحاث والدراسات

# مجلة الربيع


## الهيئة العلمية

عبد الله حمودي
ادريس بنسعيد
ابراهيم ياسين
محمد الساسي
عبد الغني أبو العزم
فاطنة سرحان
علي كريمي
دحو جربال (الجزائر)
عيسى قدري (الجزائر)
محمد شوقي الزين (الجزائر)
عبد المجيد الشرفي (تونس)
رجاء بنسلامة (تونس)
فواز طرابلسي (لبنان)
حُسن عبود (لبنان)
فهمي جدعان (فلسطين/الأردن)



CERM

أكتوبر 2020

الثمن
40
درهما